٢ ـ شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولنستعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمه . ويعنى السخاوى فى ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل فى عدة فنون مختلفة ؛ ولكنا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى اليه علم الحديث فى عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقادة لايجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المؤرخين المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبى ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الاسناد وتمحيص الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ؛ وكانت براعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه إلى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هى التى تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها

ويحدثنا السخاوى فى ترجمته بأنه شرع فى التأليف « قبل الخمسين » ؛ ولكن هنالك مايدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعنى وهو فى نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى سنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه فى مكة [1] ، وإذاً فهو قد بدأ التأليف فى سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه فى استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف مزوداً بعادة غزيرة ؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تباعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة

وبدأ السخاوى التأليف فى ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها فى ترجمته ، ولكنا لم نتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة فى الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » و « الغاية فى شرح الهداية » و « الاخبار المكللة فى الأحاديث المسلسلة » و « شرح الشمائل النبوية للترمذى » و « التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبى حنيفة » ، وعدة كتب ورسائل أخرى فى شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذيول لبعض كتب الحديث المعتبرة يذكرها كلها فى ترجمته ، ولا يتسع هذا المقام لذكرها [1]

وكتب السخاوى فى هذه الفترة الأولى أيضاً عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجمها ؛ الرحلة الحلبية وتراجمها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته فى تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً فى تراجم شيوخه وأساتذته اسمه « بغية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى »

* * *

على أن أهم ما فى تراث السخاوى هو مجهوده التاريخى والأدبى ، ففيه يرتفع السخاوى الى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته فى أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد انتهت الينا نخبة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمنى فى استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استهل مجهوده التاريخى بوضع كتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » والسلوك الذى وضع هذا الكتاب ذيلاً له هو كتاب « السلوك فى دول الملوك » لتقى الدين المقريزى ، وقد تناول فيه تاريخ دول المماليك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ؛ وتناول السخاوى فى كتابه تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٨٤٥ ـ ٨٥٧ هـ ؛ وكتبه كما يقرر فى مقدمته نزولاً على رغبة الداوادار يشبك المهدى وزير

(١) السخاوى فى ترجمة نفسه — فى الضوء اللامع فى المجلد المشار اليه — ص ٧٤

(١) راجع الضوء اللامع — المجلد المشار اليه ص ٧٥ وما يليها حيث يعدد السخاوى كتبه وتآليفه

السلطان الظاهر خشقدم[1] ؛ وعنى السخاوى بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة باسهاب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمنى ؛ وكتب السخاوى أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الأصر »[2] ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر

وأعظم آثار السخاوى بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع فى فى عدة مجلدات ويتم عنوانها عن موضوعها ، ويبسط لنا السخاوى موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة احدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة . . . » وقد هيأت حياة السخاوى نفسه وتجواله فى مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء فى عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم فى مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوى بلا ريب أعواماً طويلة فى اعداد مواده وتنظيمها واستكمالها ؛ والظاهر أنه لم يبدأ فى كتابة معجمه إلا فى أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠ هـ واستمر فى الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ؛ يدل على ذلك أنه يصل فى ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر فى خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ[3]

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة فى التصوير ليس لها نظير فى كتب التراجم الاسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوى فى أعظم خواصه وكفاياته الأدبية نقادة لايجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً فى مواطن كثيرة ، فيتزع عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده تحامل بين ؛ وقد ترجم السخاوى كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم — إلا شيخه ابن حجر — لم ينج من تجريحه اللاذع ؛ وتراجم المقريزى وابن خلدون وابن تغرى بردى والسيوطى أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، ففيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطيق عبقريه بارزة من عبقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة ؛ وهو يبدو فى أحيان كثيرة فى حملاته قوياً ضارم الوطأة ، غير أنه يبدو فى أحيان أخرى سقيما تعوزه الحجة فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرد ؛ وقد كان السخاوى أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء قلمه ، وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها فى مقدمة الضوء اللامع فيما يأتى : « ولكني لم آل فى التحرى جهداً ، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الأعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان بن ظهيرة المعتلى يقولان ، إنك منظور اليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنمش للعقول ، وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه وتمتد اليه الأعناق فى سفره ومقامه ، من زكيته فهو العدل ، ومن مرضته فالضعيف المعلل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت فى حياتى لا ترجمه بمالعله يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوى لنفسه فى كتابه ، كما رأينا ، ترجمة ضافية ؛ ويذيلها بنبذ عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه فى مديحه والاشادة بغزير علمه ، والتنويه بتبوئه مركز الرياسة والزعامة فى علم الحديث ، ومنها ما خصه به بعض خصومه كالبقاعى قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بايراد بعض القريض الذى قيل فى مديحه وتقديره

وقد كان كتاب « الضوء اللامع » حادثاً أدبياً عظيماً ؛ تردد فى كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التى نشبت مدى حين بين السخاوى وبين بعض أقرانه وتلاميذه ولا

(١) التبر المسبوك (ص ٥) — والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ٤٥)

(٢) حملت دار الكتب أخيراً على صورة فتوغرافية لهذا الكتاب منقولة من نسخة بخط السخاوى نفسه وهى فى مجلد

(٣) يراجع الضوء اللامع — ج ١ ص ١٠١ فى ترجمة ابراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ

سيما البقاعي والسيوطي ؛ واتخذت صوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل ؛ واستمر صداها يدوي مدى حين بعد وفاة السخاوي وخصومه ، وكانت من أهم وأغرب الحوادث الأدبية في هذا العصر (١)

وكتب السخاوي إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى في التراجم منها حسبما يذكر كتاب « الشافي من الألم في وفيات الأمم » وهو ثبت لوفيات الأعيان في القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر في مجلد ضخم أسماه « كتاب الجوهر والدرر » ، وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب ، وفي خاتمته ما يفيد أن السخاوي كتبه في مكة سنة ٨٧١ هـ ؛ وفيه يتحدث باقاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ؛ وما قيل في رثائه من نثر ونظم

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوي أنه كتبها ، ولكنها لم تصل الينا مثل « التاريخ المحيط » الذي يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ المدنيين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى منوعة منها : ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع في بيان المساجد والجوامع ، القول التام في فضل الرمي بالسهام ، عمدة المحتج في حكم الشطرنج ، الكنز المدخر في فتاوى شيخه ابن حجر ، القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ؛ ومن هذا الأخير نسخة بدار الكتب

* * *

ونجد أخيراً في تراث السخاوي أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما الينا ؛ أولهما كتاب « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ، في الخطط والمزارات والبقاع المباركات » وهو دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة ، ولا سيما مصر القاهرة ؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التي تقع فيها هذه المشاهد في أواخر القرن التاسع ؛ وذكر لكثير من المشاهد والمدافن التي لم يعن بها المقريزي في خططه ، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم ؛ ومن ثم كانت أهمية الكتاب في تاريخ الخطط المصرية ، إذ نستطيع بالرجوع إلى معالمه أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها في القرن التاسع الهجري

وأما الثاني ، فهو كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو رسالة نقدية قيمة ، يعرف السخاوي فيها علم التاريخ ويشيد بفضله ؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التي تدخل في حيز التاريخ ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الاسلامية التي ظهرت في مختلف أبواب التاريخ وعصوره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف في تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين والأطباء والاشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأمهات الكتب التي وضعت في هذه النواحي المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة

هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوي وآثاره ، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، إذا أردنا أن نفي شخصية السخاوي ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث ؛ وقد كان السخاوي بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الاسلامية والعالم الاسلامي في القرن التاسع الهجري

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) سبق أن عالجنا هذه المعارك الأدبية الشهيرة في بحث مستفيض نشرناه في مجلة الهلال الغراء (سنة ١٩٣٢)

الرسالة في الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهري بأربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً